

## جبال الصوّان

....

مع المشهد الأول ندخل إلى بيئة الحرب ومقاومة جبال الصوان برجالها وحجارتها ومعاول فلاحيتها وعمل النساء في حقولها ويضعنا النشيد، الذي يؤديه الأهالي، في ساحة أسفهم لما حلّ بهم وهم يبغضون الحرب وسفك الدماء وقد أقحمهم الأعداء في أتونها ظلماً.

فتيان: بَعْدًا جِبَالِ الصَّوَّانِ عَمَّ بِنْتَقَاوْمِ  
عَمَّ بِنْتَقَاوْمِ عَمَّ بِنْتَقَاوْمِ عَمَّ بِنْتَقَاوْمِ  
زَحَفَ الزَّحْفِ عَلَيَّهَا وَقَعَ التَّوَيْلُ عَلَيَّهَا  
خَيْلٌ وَعَسْكَرٌ وَقَوَاسِ النَّشَابَةِ تَعِينُ وَتُرِدِّي رُجَالًا  
فتيات: يَا حَيْفَ الْإِيَّامِ الْحِنَاوَةِ  
يَخْتَمُّهَا الدَّمُ يَنْهَبُهَا النَّمُوتُ الصَّارِمُ  
فتيان: طَلَعُوا عَلَيَّهَا مِنْ السَّهْلِ  
طَلَعُوا بِلا خَوْفٍ وَلا حِزْنٍ وَلا أَهْلٍ  
فتيات: طَلَعُوا عَلَى نَاسٍ  
فتيان: فِي عِنْدُنْ حِزْنٌ وَوُلَادٌ وَأَهْلٌ  
وَبَعْدًا جِبَالِ الصَّوَّانِ عَمَّ بِنْتَقَاوْمِ

....

ينتهي المشهد واضعاً إيّانا في الوطن المحتل وفي صور معاناة أهله وكفاحهم المرير من أجل استرداده. ويبدأ المشهد التالي في واحدة من ساحات البلد وقد خيم الحزن والوجوم على زواياها المُقْفرة من الناس ماعدا العجوز (حنّة) التي تقف سائدة ظهرها المحني إلى جذع شجرة أصابها اليباس وتكلم نفسها مع تنهيدة تخبيء وراءها حزناً وألماً وحسرة على من راح وما راح:

حنّة: سِنِيَّةٌ.. ائْتَيْنِ.. ثَلَاثَةٌ.. مَرَقُو عَ مَوْتِ مِذْلِجِ  
أَرْبَعَةٌ.. خَمْسَةٌ.. سِتٌّ سَنَيْنِ مَرَقُو عَ مَوْتِ مِذْلِجِ  
سَبْعَةٌ.. ثَمَانِيَّةٌ.. تِسْعَةٌ.. عَشْرَةٌ  
وَفَاتِكِ المَتَسَلِّطِ مَحْتَلِ جِبَالِ الصَّوَّانِ  
وَأَنَاعِمِ خَتِيرِ سِنِيَّةٍ عَنِ سِنِيَّةٍ

والأهالي: ناس نيسُو.. وناس عم يينسو.. وناس ما نيسُو  
وَصُورَة مَذَلِج عِنَقِت  
وَبَعْدًا مَعْلَقَة عَ كَم حَيْطُ بِيئوت نسوان لابسين أسود  
أنا حنّة السّاحلانيّة وصورَة مَذَلِج قاعدَة عندِي عَ الحَيْطُ  
أنا بعرفن كلن ..

العجوز رمز الأم في جبال الصوان. هي سجلّ حكاياتها وسيّر أبنائها وعائلاتها في انكسارهم كما في عزّهم، وهي المرجع لما غاب عن بال الأهالي والمرشد فيما يفعلون عند الشدّة.. وهي قارئة فناجين القهوة بعد أن يحتسيها الحالمون والحالمات عند راحتهم تستحضر لهم مستقبلهم وتدغدغ عواطفهم المكبوتة، تعدّ من تعدّ وتنبّه غيره وتضحك ثالث.

....

وترمق غربة الناس بنظرة فيها من مشاعر عدم الرضى ما يغلب مشاعر الحزن.. فهي لا تريد أن يبقى اليأس مُسيطرًا على النفوس، وهي لا تختصر المأساة باستشهاد والدها فينسى الناس كارثة الهزيمة أمام المحتل وحالة الاضطهاد التي يعيشونها والتي أُنتمهم من أجل السعي للخلاص منها:

غربة: خَرَقُوا لي هالتياب السُّود  
خَرَقُوا هالخوف والفرح يرجع  
وراية العزّ القديم تعود  
رجعوا إلفية هاك الإيام  
إيامنا الحلوّة يجبالنا السمررا  
وبيوت توعى ع الهنا وتنام  
مجدنا ينعاد والنهوى ينفذ  
ونرد العراس ونرد العياد  
نزليعطو وترقصو ويكبّرو الولاد

إعلان صريح وجريء ومبكر من غربة، صاحبة الروح الثورية وورثة الكفاح من أجل الوطن استهلّت به عودتها مذكّرة الأهالي بالعزّ والفرح أيام السيادة والسلام. فهل يتجاوب الناس مع دعوتها؟

الجميع: / غربية يا غربية يا مربى الشوق وقمر الغربية  
يا همّ جديد انولد بعيد وإجا ع العيد يضوي الغربية / (٢)

وتبادلهم غربة مشاعر الفرّح والغبطة باللقاء الذي ستبدأ معه مرحلة جديدة سيكون لتضامن الأهالي ومحبتهم لبعضهم وللوطن الدور الكبير في تحريره وعودة الفرّح والعزّ:

غربة: هَيْهَاتِ يَا بُو الزُّلْفِ عَيْنِي يَا مُوَلِيَّ  
عِدْنَا عَ أَرْضِ الدِّينِ أَوْ عَادَ الْهَنَالِيَّ

....

سنوات سيطرة فاتك وتسلمته على أهل جبال الصوان لم تُنْهَ فيهم روحَ التمرد عليه والكفاح من أجل الحرية، وإن أدت شدة قمعه وسياسة البطش والإرهاب التي مارسها عليهم إلى خوفهم ويأس بعضهم وهجرة آخرين. وما زال أمام غربة الكثير لعمله كي تعيد إلى الأهالي الثقة بالنفس والعزيمة القوية والتضامن والسير في طريق الثورة ودحر العدو، فهي طريق صعبة وتتطلب بذلاً وشجاعة واستبسالا. ففي حين يتردد البعض بسبب خوفهم من الحرب ومن قلّة عددهم وعدتهم (وَيَرْجِعُ الْقِتَالُ مَنْ جَدِيدٌ؟! ) تحذرهم غربة الواعية والكريمة النفس مما يدفعونه من ثمن. الوعي أكثر ما يقلق الفاتكيين وعملاءهم.. صرّح بهذا شهوان محذراً (وَعَيْوُ وَعَيْوُ) عندما أحسّ بدور غربة وشاهد بعينيه وسمع بأذنيه ما فعله الأهالي وما جاء في أغاني غربة والآخرين في عيد العنب وفي عرس ابنة أبي صقر.

لوعي ونشره مكانة كبيرة في الأدب الرحباني. في جميع أعمال الأخوين حصصاً لهذا العامل الكبير الأهمية في التحرر والتطور الاجتماعي. والوعي ثقافة.. والجهل وحصر انشغال العقل بتوافه الأمور، كالمال والممتلكات والنفوذ والتميز الفردي، سلاح فتاك يستخدمه أصحاب المصالح الأنانية لقمع الناس واستعبادهم. وأكثر ما سلط الأخوان رحباني الضوء عليه هو العلاقة بين الوعي وحرية الوطن والناس.

فغربة، التي أدركت في سنوات غربتها العشرة في بلاد المهجر دورَ الوعي في ضمان الحرية والحفاظ عليها نقلت معرفتها إلى أهل جبال الصوان منذ وصولها (لما صار الوقت جيت).. وفي عيد العنب طمّأنت الناس بأنها وآخرين ليسوا نائمين بل يحضرون أنفسهم للثورة على الطغيان (لَوْحٌ يَأْسِفُ رَجَعْنَا قَرِيبِيَّةً) وأن الوعي بدأ يعمّ الوطن (من حيّ لحيّ عم توعي البشائر) وأن الحرية قادمة لامحالة (شمس الهنا جايي والليل عم بيروح) وأن العدو إلى الهزيمة (هَرَبُوا التَّعَالِبَ مِنْ وَجِّ النَّوَاطِيرِ)! ..

وعندما حاول الفاتكيون الذين أغاظهم بناء (بلاد الفي)، (قناطر مضويّة) والفرح الدائم في أبراجها وساحاتها، عندما حاولوا إعادة الأهالي إلى حالة اليأس والإحباط عن طريق نشر الإشاعات وخلق البلبلة في صفوفهم، ظهر دور الوعي والشجاعة على لسان غربة (هَدَّتْكَنْ الإِشَاعَاتُ؟) و(لا تُخَافُوا) مذكّرة الجميع بما سجّله تاريخ البشرية من مأس (غَمَرِ الطُّوفَانَ الْأَرْضَ – هَدَمَتِ الْحُرُوبُ الْمُتَنَ – اسْتَعْبَدُوا الظُّلَامَ النَّاسَ) وكيف تجاوزها الإنسان بنضال (اللّي بقئيو) ..

....

ماتت غربة وهي تحضن البوابة كما فعل أبوها. وقبل أن تنطلق أبواق فاتك لإعلان النصر انطلقت أهازيج وزلاغيط أهل غربة وهم يتقدمون دون خوف من جسدها الذي مازال ملتصقاً بالبوابة

وذراعاها متمسكتان بطرفيها فيما بدأ سعد والرجال يتقدمون شاهرين أسلحتهم بوجه فاتك الجبان وجماعته، وبدت من بعيد جماهير قادمة مدججة بالسلاح دعماً لسعد والأهالي.

وإذ يعطي ديبو الأمر بالاشتباك يصرخ فاتك خوفاً:

فاتك:  
لا.. عَبَثَ كُلَّ اللَّيِّ صَارِ.. عَبَثَ اللَّيِّ بَدُو يَصِير  
قَتَلْنَا النَّبِيَّ.. قَتَلْنَا النَّبِيَّتْ.. وَعَبَثَ، شَوْ بَدْنَا نَقْتُلُ تَ نَقْتُلُ؟  
مَا بَقِيَ رَحَ تَخْلَصَ الْقِصَّةَ.. أَوْلَادَ مَدْلَجَ، إِخْوَةَ غَرِبَةَ عَمَ يَخْلُقُو كُلَّ يَوْمَ  
دِيبُو.. خُودَ الْعَسْكَرِ وَاهْرُبَ، يَاحْنِيَّ جَايِينَ.. مِنْ خَلْفِ الصَّخُورِ جَايِينَ  
مَنْ تَحْتَ الشَّجَرِ جَايِينَ.. وَجَايِينَ مِنْ إِيَامِ الْغَضَبِ!!  
إِيْدِيْنَ عَمَ تَلْوَحُ بِالزَّمَانِ.. وَيْنَ بَدْنَا نُوقَفُ؟  
جَيْشِي تِيَابَ مَحْرَقَةَ بَيْنِ الصَّخُورِ ..  
اهْرُبُو تَ نِهْرُبُ قَبْلَ مَا يَوْصَلُو اللَّيِّ جَايِينَ.. اهْرُبُو

ويتراجع فاتك وديبو وضباطهم وعساكرهم والحراس يجرون أذيال الهزيمة ورؤوسهم تتلفت من الخوف وقبل أن يغيب فاتك صرخ وعيناه تتأرجحان بين بوابة الجبل وامتداد السهل البعيد:  
فاتك:  
يَاجِبَالُ غَرِبَةَ.. يَاجِبَالُ مَدْلَجَ.. يَاجِبَالُ الصُّوَانِ ..